جمال الدين الأفغانى

نحن فى عصر المواصلات البخارية والكهربائية – وفى عصر الإذاعة والنشر بالمطبعة والبريد على تعدده ، والمذيعات على تفاوتها فى السرعة والتعميم . ففى وسع الحكيم أو الواعظ أو المعلم أن ينشر رأيه دون أن يظهر للناس بشخصه . وفى وسعه أن يتخذ له ألوف الألوف من التلاميذ دون أن يرى تلاميذه أو يتمكن التلاميذ من رؤيته ، فليس للمظاهر الشخصية ولا للجاذبية النفسية كل الشأن فى لفت الأنظار وترويج الأفكار ، وليس من الضرورى اللازب أن يكون المعلم أخاذا بسيماه نفاذا بمرآه ، فيكاد يستوى لديه ولدى الناس أن يكون مقبول الطلعة أو مشنوءها ووسيم الهيئة أو بذيئها ، وحاضر البديهة أو بطيئها ، وقوى الجاذبية أو ضعيفها ، لأنه يستطيع أن يشرح أفكاره وهو متوار عن قرائه ومريديه – فلا يكون لسماته الشخصية الشأن الأول فى النشر والإذاعة أو فى الإقناع والتأثير .

لكن الأمر لم يكن كذلك فى جميع العصور ، فإذا استغنى المعلم العصرى بعض الاستغناء عن الوجاهة والجاذبية فمعلم العصور

الغابرة لم يكن له غنى عنها فى حال من الأحوال ، ولم يكن شأنها ضعيفًا فى تقريبه من العظماء أو فى تقريب التلاميذ إليه ، فربما ارتقى مكان العالم لما عنده من الوجاهة والجاذبية حتى يبذ العلماء الذين يفضلونه فى المعرفة والثقافة ، وربما انخذل العالم ولا خاذل له إلا أنه فاتر المحضر أو ضعيف الشخصية .

ولا يندر أن يرتقى مكان الواعظ الضعيف الفاتر على قلة نصيبه من الجاذبية الأخاذة والمحضر المهيب . فلا يفهم من هذا أن العوامل الشخصية بطلت هنا كل البطلان ، واستغنى عنها الواعظ كل الاستغناء . بل الحقيقة أن هذه العوامل لا تزال فى هذه الحالة قائمة فعالة ولكنها اختلفت بعض الاختلاف ، فبدلاً من التفاف الناس بالمعلم لهيبته وسحر طبيعته أصبحوا يلتفون به للعطف عليه والعجب من ورعه أو زهده ، أو ما يلوح عليه من التواضع والاستكانة ، وهو على كل حال مدين فى شهرته للعوامل الشخصية والسمات التى يراها الناس بالأعين ويحسونها على مقربة .

وموضوع حديثنا الليلة – رجل تتلخص عظمته كلها فى كلمة أو كلمتين : الجاذبية أو من شاء فليسمها المغناطيسية الشخصية .

ذلك الرجل هو السيد جمال الدين الأفغانى ،معلم المعلمين وطليعة المعلمين فى الشرق الحديث،وباعث نهضته الحاضرة فى كثير من الأقطار .

فلولا المغناطيسية الشخصية ما كان أثر جمال الدين بالغا أشده فى فارس ومصر والهند وتركيا دون غيرها من البلدان الشرقية ، لأنها هى البلدان التى عاش فيها بشخصه واتصل فيها بتلاميذه .

ولولا المغناطيسية الشخصية ما كانت قوة جمال الدين بادية كلها فيمن خلفهم من المريدين لا فيما خلفه من الكتب والصفات .

ولولا المغناطيسية الشخصية ما كان جمال الدين قادرًا على أن يظهر فى البلد الذى ينزل به بعد أسابيع قليلة من وصوله إليه ، مع ما نعلم من العقبات الجسام التى تحول بين الرجل وبين الظهور فى بلد غريب .

ولولا المغناطيسية الشخصية ما كان الملوك والأمراء يقبلون من جمال الدين أن يخاطبهم فى قصورهم مخاطبة الند للند والزميل للزميل ، وما عرف عن جمال الدين قط أنه خاطب خليفة آل عثمان ولا وريث عرش القياصرة ولا شاه الشواهين ولا أمير وادى النيل إلا كما يتخاطب الأنداد والزملاء .

ولولا المغناطيسية الشخصية ما كان جمال الدين مستطيعًا أن يجوب الآفاق بغير مال ؛ لأنه كان إذا احتاج إلى المال فى رحلاته الكثيرة أمر بعض مريديه من الموسرين أن يحملوا إليه كفايته منه ، فلا يعصى له أمر ولا ترد له رغبة .

هذه المغناطيسية الشخصية كانت قوة جمال الدين الكبرى ، وكان قوامها الأكبر ثقة بالنفس لا تحدّ ، وإيمانًا بالحق لا يتزعزع .

على أن الثقة بالنفس ضروب كثيرة ، لأنها تتألف من عناصر متعددة تختلف باختلاف النفوس .

فمن الناس من يثق بنفسه لأنه غنى أو صاحب منصب ، ومنهم من يثق بنفسه لأنه مغرور لا يعرف قدره ولا يعرف أقدار من معه . ومنهم من يثق بنفسه لأن الثقة تريحه من قلق الشكوك كما يستريح النائم إلى المهاد الوثير .

وكل أولئك عناصر زائلة أو زائفة ، لا تلبث أن تصطدم بالوقائع حتى تتوارى وتتحطم ! فربما انقلب الغنى أو صاحب المنصب من صلف العزة إلى ضراعة الذلة متى صفرت يده من المال أو خلا مكانه من الجاه ، وربما خادع المغرور نفسه زمانًا فاسترسل فى اللجاج والمكابرة حتى تنبهه الحوادث فيفرغ كما يفرغ الزق المنفوخ ، ومثله فى هذا كمثل المقاتل الذى يظن أنه فى حصن حصين بين العدد والجيوش فلا يزال بخير ولا يزال مغترا بظنه حتى يهجم عليه الأعداء ، فإذا هجموا لم يغن عنه الظن ولم يجد له مناصًا من التسليم ! وهو لا يفعل ذلك لو كان له نصيب من الحصانة التى يدعيها والمنعة التى يستنيم إليها .

وكذلك الواثق بنفسه لأن الثقة تريحه من شكوكه إنما يتغافل

عن الحقيقة ولا يغفل عنها ، وإنما يعجب بالطلاء الظاهر ولا يجهل أنه طلاء ، ولكنه لقلة الحيلة يقبله كأنه معدن نفيس .

أما جمال الدين فلم تكن ثقته بنفسه من هذا القبيل ، لأنها ثقة قائمة على عناصر موروثة وفضائل مستقرة ، فلا تغيرها الطوارئ ولا هى تتغذى بالأوهام .

وكانت للثقة عند جمال الدين عناصر متجمعة من عراقة الحسب وفطرة البداوة ، ومتانة العقيدة ، وصحة التركيب ومهابة الطلعة وتعوّد الإعجاب والتبجيل من جميع من رأوه وعاشروه ، وإذا اجتمعت هذه العناصر إلى الذكاء الخارق والعلم المتفوق فهى دعائم من اليقين تزيدها الأيام شدة ، وقلما يخاف عليها الوهن والتقويض .

فصاحب الحسب أرفع نظرًا إلى قدره من المهين الذى تعود الذلة والخنوع .

وصاحب الفطرة البدوية أقل شكا وترددا فى الأمور ممن يعيشون فى الحضارة بين شعاب الرزق المتفرقة ونقائض الحياة الكثيرة .

وصاحب العقيدة المتينة أشد وثوقًا بنجاحه وصدق أمله وقرب غايته ممن لا يعتقد ولا يطمئن إلى إيمان بغاية .

وصاحب التركيب الصحيح لا يحذر على بنيته ولا على معيشته ما يحذره صاحب التركيب السقيم .

ومن ألف أن يهاب ليس كمن ألف أن يهان ، ثم يكون الذكاء نورًا يضيء للإنسان جوهره وجواهر الناس المحيطين به فيطمئن إلى قدره ولا يحفل بما يعترضه أو بمن يعترضه فى سبيله ، وهذه العناصر كلها كانت مجتمعة لجمال الدين . فأنفقت له منها ذخيرة ثقة لا تنضب ، وأفاءت على شخصه ذلك السحر الذى يسترعى له الأنظار ويجذب إليه القلوب .

بيد أن رجلا له مثل ما كان لذلك الرجل من العزة والمهابة والطموح – خليق أن يثير الحسد والعداوة حيث كان ، فيكثر حوله الأعداء كما يكثر حوله الأنصار ، ويفرط أعداؤه فى بغضه كما يفرط أصدقاؤه فى حبه ، فلا يطمع من هؤلاء ولا من هؤلاء فى اعتدال وحسن تقدير .

وهذا ما حدث فى تاريخ جمال الدين بين مبغضيه ومحبيه . فغلا أعداؤه فى التشهير به حتى أنكروا عليه كل دعوى وأرابوا الناس من أمره فى كل صفة ، فلم يكفهم أن اتهموه بادعاء الشرف والنسبة إلى النبى حتى قالوا إنه لم يولد مسلمًا وأنه غير مختون !! وزادوا فزعموا أنه أجير المستعمرين وما قضى حياته كلها إلا فى كفاح المستعمرين .

وغلا أصدقاؤه فى تقديسه حتى نسبوا إليه كل علم ، وأضافوا إليه كل مأثرة ونفوا عنه كل ملامة ، وليس أصعب من ترجمة رجل تخلص إلينا أخباره من خلال هذا الغلو فى العداء .

أو الغلو فى الإعجاب . لكننا نستطيع على الرغم من الإفراط فى قدحه ومدحه أن نجزم بحقيقة واحدة هى أم الحقائق فى شأنه ، وتلك أنه رجل عظيم . بل لعلنا لا نعرف شيئا يدل على كنه العظمة فيه كما يدل عليه هذا الغلو الشديد بين الفريقين ، فإن العظيم الحق من يغلو أصحابه فى حبه ويغلو أعداؤه فى مقته ، وقلما تقارب الناس فى وصف إنسان إلا أن يكون من الأوساط الذين يهون خطبهم على الأصحاب كما يهون خطبهم على الأعداء .

ونحن نريد هنا أن نصف الرجل ولا نريد أن نتشيع له أو عليه . فسبيلنا أن نقابل بين الأقوال وأن نغربل أخباره من هنا وهناك ونختار منها ما هو أقرب إلى المعقول وأشبه بالواقع ، ونعتمد هذه الطريقة فى استجماع صفاته وأخلاقه وملكاته وأساليبه فى أداء رسالته ، وهى رسالة يمكننا من الآن أن نلخصها فى كلمات قليلة لا تردد فيها ، فهى إنهاض العالم الإسلامى أو العالم الشرقى كله ، عن يقين من الرجل بأن هذا الإنهاض مستطاع ميسور ، بل محتوم محقق متى توافرت أسباب الدعاية .

كان جمال الدين ربعة متين البنية من أصحاب المزاج الذين يعرفون بالعصبيين الدمويين ، وكان أسمر اللون أسود العينين نافذ النظر قصيره يستعين بالنظارة ، وكان رأسه يميل إلى الكبر وجبينه يميل إلى الاتساع ، وكان خفيف العارضين مرسل الشعر

يلبس الجبة والسراويل على نحو أهل الهند فى زى العلماء خاصة .

وكان قليل الطعام يتناول وجبة واحدة ويشرب الشاى بقية اليوم ، ولاينام إلا من الغلس إلى الضحى ، وربما ترخص فى المباحات التى لم يألفها جماعة العلماء لعهده . فكان يجلس على القهوات العامة ويدخن اللفائف الإفرنجية ويعنى بانتقائها عناية شديدة ، ويقول سليم بك العنحورى فى شرح ديوان « سحر هاروت » إنه كان يتناول القليل من الكونياك . ولكن الأستاذ محمد رشيد رضا يعقب على هذا فى الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الإمام بقوله « إن ما ذكره العنحورى من عادته فى أكله وشربه فيه الخطأ والصواب . فقد كان يأكل الوجبة ولكنه لم يكن يأكل وحده . وقد كان يكثر من شرب الشاى ولم نسمع حتى من أعدائه أنه كان يشرب المسكرات ، فإن لم يكن ما قيل من شربه لقليل من الكونياك فرية فيحتمل أن يكون له شبهة ، كأن يكون رآه الناقد يشرب شيئا يشبه الكونياك أو يكون شرب ذلك القليل تداويًا فظنه الناظر عادة » .

وقضى جمال الدين حياته لم يتزوج ولم يقبل ما اقترحه عليه السلطان عبد الحميد من تزويجه بإحدى جواريه الحسان ، ويلغط أعداؤه بكلام فى هذا الصدد لا بينة عليه . وقد سئل هو فقال : « إنى لو تزوجت لكان زواجى أغرب عند العارفين بحقيقة

أمرى فى مصر من ذهاب الشيخ عليش بتلاميذه إلى إخدى ملاهى الأزبكية وتعاطيهم كئوس البيرة جهرًا » وقد ذكر الشيخ رشيد ذلك للأستاذ الإمام فقال له « إنه كان قد فقد داعية الزواج والقدرة عليه بانصراف الذهن عنه إلى ما علق آماله به من عظائم الأمور » .

على أن الذى أفهمه انا من تلك العبارة أن الزواج فى نظر جمال الدين ترف لا يتاح للمصلح المتجرد للخطوب الجسام ، لأن المصلح رجل يروض نفسه على التقشف والأهبة الدائمة للنفى والاعتقال والحرمان .. فرجل مثل هذا إذا رخص لنفسه فى الزواج لا يقل فى الغرابة عن الشيخ المتحرج الذى يشرب البيرة فى قارعة الطريق . ويؤيد هذا التفسير ما سمعته أخيرا عن أديب سليل بيت معروف كان أبوه يلازم السيد جمال الدين ويحضه هذا على التفرغ للإصلاح ومصاحبته فى نشر الدعوةفيعتذر له بتكاليف الأسرة والأبوة . فحنق منه جمال الدين مرة وقال له انبذ ولدك هذا ولا تدعه يعوقك عن سبيلك .

أما صفاته النفسية فأكبرها علو الهمة وعزة القدرة والحمية ، وربما تطوحت به العزة إلى الحدة العنيفة والإصرار اللدود إذا غضب أو استغضب ، فكان فى هذه الحالة يستهين بالبطش يصيبه أو يصيب به أعداءه غير حافل بالعواقب .

وهو على أدبه فى الخطاب مع من يخاطبهم من العظماء وغير

العظماء لم يكن يرى نفسه دون أحد من الناس فى المنزلة وحقوق الكرامة ، فإذا جرى فى حديثه مع الملوك والأمراء ما يستوجب الصراحة جهر برأيه فى غير تلعثم ولا مواربة . كذلك رووا عن خطابه لقيصر الروسيا حين دار الكلام بينهما على مزايا الحكومة الدستورية ، فاعتصم القيصر بحق الملوك الإلهى واعتصم جمال الدين بحق الشعوب ... ولم يتزحزح عنه على الرغم من كدر القيصر وامتعاضه ، وكذلك جرى له حديث مع توفيق باشا فى مسألة الدستور فقال توفيق باشا إن الشعب لم يبلغ بعد مبلغ هذه الآراء التى ينصح بها السيد . فكان جواب السيد له إن الشعب المصرى فيه الخامل والجاهل وفيه العالم الضليع كسائر الشعوب ، وإن إشراكه فى الحكم منفعة للحاكمين وللمحكومين واتقاء لضرر يصيب الجميع .

وقد لاحظ عليه رئيس التشريفات فى المابين الهمايونى مرة أنه يلعب بحبات مسبحته فى حضرة السلطان ، فأجابه محتدًّا : سبحان الله ، إن السلطان يلعب بحياة ثلاثين مليونا من الأرواح الآدمية .. أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بثلاثين حبة من الكهرمان ما يشاء ؟ !

ولما كان فى بطرسبرج زارها شاه العجم فطلب لقاءه فلم يلتفت جمال الدين إلى طلبه لأنه كان سيئ الظن به وبوزرائه ، ثم استفحل خطب هذه النقمة بعد أن تلاقيا وذهب جمال الدين

إلى فارس ثم خرج منها مغضبًا مشيعًا بالتشهير والهوان .

فلما اشتدت على الشاه حملاته ولذعاته أرسل إلى سفيره فى الآستانة ليلقى السلطان عبد الحميد ويرجوه أن يأمر جمال الدين بالكف عن تشهيره ، فكان جوابه للسلطان « إننى امتثالا لأمر الخليفة قد عفوت شاه العجم ! قد عفوت شاه العجم ! » فقال السلطان:« بحق يخاف منك شاه العجم خوفًا عظيمًا ».

وقد شك بعض من سمع هذه القصة فى صحة العبارة لأنهم ألفوا أن تتعدى « عفا » بحرف الجر ولكن تعديتها بغير الحرف ليست من الخطأ . وقد كان جمال الدين يقيم العربية فى جملة كلامه . ويميل تارة إلى اللهجة المصرية وتارة إلى لهجة الفرس المتكلمين بالعربية ، قال العلامة الجليل أحمد لطفى السيد باشا إنه زاره مع زعيم مصر سعد زغلول فى الآستانة حين ذهبا إليها فى صحبة الخديو عباس فقال السيد لسعد وقد رآه بالملابس الإفرنجية : « لقد كانت عمامتك ها القدر ! » وأشار بيديه إشارة التكبير .

ولهذه المناسبة نروى عن لطفى باشا مثلا من أمثلة الأسلوب الذى يستطرد به السيد فى دروسه العامة . فإنه يتخذ من بعض الملاحظات العارضة مناسبة يتطرق منها إلى الموضوع الذى يلائمها ثم يسترسل فيه . قال لطفى باشا : كان فى المجلس غلام

صغير مع أبيه . فجعل السيد يسأله ويكرر السؤال له وهو لا يجيبه . فالتفت السيد إلى جلسائه وسألهم : أتعلمون لماذا سكت هذا الغلام ؟ قال بعضهم : لأنه خجل . فقال السيد : ما صنعت شيئًا ... كأنك تقول إنه يخجل لأنه يخجل ، وإنما نفهم سكوته إذا فهمنا طبيعة الإنسان فى حب الكمال وخشية الظهور بالنقص . ثم مضى فى شرح هذه الطبيعة الإنسانية ومالها من علاقة بأخلاق الآحاد والجماعات .

ومن أخلاقه التى تعاب أحيانا قسوته فى العقيدة وعنفه فى اجتثاث الموانع التى تعوقه - فقد عزى إليه أنه كان من المحرضين على اضطهاد البابيين فى البلاد الفارسية ، فنالهم من جراء ذلك ضيم عظيم .

ومن لدده الشديد فى الخصومة أنه كان لا ينسى ثأرًا ولا يصفح عن إساءة ... إلا أن يعالج بما يرضى كبرياءه واعتداده بقدره ، وقد يحمد هذا الخلق إذا صاحبته الحمية فى طلب الإصلاح كما حدث فى مسألة التنباك ، ولكنه من الأخلاق المعيبة إذا أدى إلى المجازفة بحياة البرىء فى سبيل الانتقام .

فأما مسألة التنباك فخلاصتها أن بعض وزراء الفرس كانوا يبيعون مرافق البلاد للشركات الأجنبية ومنها التنباك ، فجد السيد جمال الدين فى إثارة الأمة عليهم وعلى الشاه حتى أخرجوه

كما قال فى وصف خروجه مشيرا إلى أحد الوزراء « إن ذلك اللئيم أمر بسحبى فى شدة المرض على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصور دونها فى الشناعة ، وهذا كله بعد النهب والغارة ثم حملنى زبانيته الأوغاد وأنا مريض على برذون مسلسلا فى فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية ، وساقتنى جحفلة من الفرسان إلى خانقين » .

فما استقر جمال الدين فى البصرة حتى وجه بخطاب نارى العبارة إلى رئيس مجتهدى الشيعة ميرزا حسن الشيرازى يستفزه غاية الاستفزاز ويدعوه إلى إحباط بيع التنباك للشركة الإنجليزية ، فأفتى رئيس المجتهدين فتواه الخطيرة بتحريم التنباك على المسلمين لأنه إسراف وضرر بالأمة ، وأطاعه الشعب فأضرب عن التدخين وفى طليعته حاشية الشاه فى قصره ، فحبط الاتفاق وفشلت سياسة الوزير .

فاللدد فى الخصومة على هذا المنوال لا عيب فيه ، ولكن جمال الدين لم يكن يقنع بهذا وأمثاله فى لدده ، فقد قيل إنه دفع برجل من فارس إلى قتل الشاه فقتله وهو يقول « بدى إيز جمال الدين » أى خذها من جمال الدين .. ويساق فى إثبات ذلك ما قيل من أن سفير العجم فى لندن قصد إليه يستميله ويعرض عليه مالا كثيرا ليسكت عن الشاه فقال له السيد « لا أرضى إلا أن يقتل الشاه ويبقر بطنه ويوضع فى قبره » وقيل إنه رأى

صورة ميرزا رضا الكرمانى قاتل الشاه فى مجلة الاستراسيون وهو مصلوب معلق فهتف « علو فى الحياة وفى الممات » إلى أشباه ذلك من الروايات والأحاديث وما أسنده إليه براون وبلنت من الخطط والتحريضات .

إلا أننا نرى فى جانب هذه المرجحات شيئا آخر يميل بنا إلى الشك فى إقدام ميرزا رضا على قتل الشاه بباعث من إيعاز جمال الدين دون غيره . فإن ميرزا رضا الكرمانى كان من البابيين ، ولم يعرف عن البابيين أنهم كانوا يحبون جمال الدين ذلك الحب الذى يدفع بالمرء إلى المجازفة بحياته ، فلعل الرجل لم يقدم على قتل الشاه إلا انتقامًا لأبناء مذهبه ، ولعله لم يذكر اسم جمال الدين وهو يباغت الشاه إلا ليلقى الشبهة عليه ، أو لعله لم يذكره قط فى ذلك الموقف وإنما افترى المفترون تلك الكلمة على القاتل ليقنعوا حكومة الآستانة بتسليم جمال الدين إلى الحكومة الفارسية ، وذلك غير بعيد .

وبعد فإذا كان الخلاف فى إثبات هذه الوقائع وأمثالها وشيكًا أن يذهب بنا كل مذهب – فمما لا خلاف فيه أن الرجل كان صارمًا حديدًا فى غضبه ، وكان جريئًا مقتحمًا يقول ما يعتقد ولو أحاطت به عيون الرقباء واشتد حوله التضييق والإرهاب ، وقد عرفه أصدقاؤه بالصراحة وسلامة القلب والغيرة على الحق وازدراء الخداع والنفاق ، وكل أولئك خصلة تلازم الرجال

الأقوياء المعروفين بالصرامة والحدة المتجردين للكفاح والإصلاح .

أما خصائص ذهنه وعناصر ثقافته فالذكاء المتوقد والعارضة القوية والبداهة النافذة ملكات تواترت بها أقوال مريديه ومعاشريه ، ولم يجرؤ أحد من أعدائه أن ينكرها عليه . قال الشيخ محمد عبده : « لهذا الرجل سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وإبرازها فى صورها اللائقة بها كأن كل معنى قد خلق له ، وله قوة فى حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه تفكك عقدها وكل موضوع يلقى إليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه ، فيأتى على أطرافه ويحيط بجميع أكنافه ويكشف ستر الغموض عنه فيظهر المستور منه ، وإذا تكلم فى الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ... تم له فى باب الشعريات قدرة على الاختراع كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع ، وله لين فى الجدل وحذق فى صناعة الحجة لا يلحقه فيهما أحد إلا أن يكون فى الناس من لا نعرفه ، وكفاك شاهدًا على ذلك أنه ما خاصم أحدا إلا خصمه ، ولا جادله عالم إلا ألزمه ، وقد اعترف له الأوربيون بذلك بعدما أقر له الشرقيون ، وبالجملة فإنى لو قلت إن ما أتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ » .

وقال أديب إسحق « ومن عجائب ذكائه أنه تعلم الفرنسوية

أو بعضها حتى صار يقدر على الترجمة منها ويحفظ من مفرداتها شيئا كثيرًا فى أقل من ثلاثة شهور بلا أستاذ ، إلا من علمه حروف هجائها يومين » .

وقد سرد الشيخ محمد عبده العلوم التى تخرج فيها فقال إنه « تلقى علومًا جمة برع فيها جميعها ، فمنها العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وكتابة وتاريخ عام وخاص ، ومنها علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه وكلام وتصوف ، ومنها علوم عقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية ، وحكمة نظرية طبيعية وإلهية ، ومنها علوم رياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك ، ومنها نظريات الطب والتشريح : أخذ جميع تلك الفنون من أساتذة ماهرين على الطريقة المعروفة فى تلك البلاد - يعنى بلاد أفغان - وعلى ما فى الكتب الإسلامية المشهورة واستكمل الغاية من دروسه فى الثامنة عشرة من سنه ، ثم عرض له سفر إلى البلاد الهندية فأقام بها سنة وبضعة أشهر ينظر فى بعض العلوم الرياضية على الطريقة الأوربية الجديدة ، وأتى بعد ذلك إلى الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج وطالت مدة سفره إليها نحو سنة وهو ينتقل من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر حتى وافى مكة المكرمة فى سنة ١٢٧٣ فوقف على كثير من عادات الأمم التى مر بها فى سياحته واكتنه أخلاقهم وأصاب من ذلك فوائد غزيرة » .

فالرجل – كما تدلنا هذه العلوم التى سردها الأستاذ الإمام – قد تخرج على الطريقة الشرقية المعهودة فى زمنه وبلده ، واستفاد منها فوق ما يستفيد المتعلمون لأنه كان يفوقهم ذكاء وألمعية وسلامة فطرة .

على أن أديب إسحق يروى لنا « أنه كان يتتبع حركة المعارف الأوربية والمستكشفات العصرية ، ويلم بما وضع أهل العلم وما اخترعوه جديدا ، حتى كأنه قرأ العلم فى بعض مدارس أوربا العالية » .

وقد كان أديب إسحق من تلاميذ السيد جمال الدين ، ولكن الذى ذكره من شوقه إلى المعرفة والاطلاع يؤيده النظر فى رسالة الرد على الدهريين التى ألفها السيد فى أوائل ظهور المذهب القائل بالنشوء والارتقاء .

ففى ذلك الوقت لم يكن أحد من الشرقيين يعرف عن هذا المذهب إلا القليل .. ومع هذا عرضه السيد عرضًا حسنًا فى تلك الرسالة كما عرض غيره من المذاهب الأوربية الشائعة ، ولا يظهر النقص فى إدراك معنى للنشوء والارتقاء إلا حين يتصدى للرد على بعض أدلته كما قال مثلا فى مناقشة التطور : « على زعم دروين هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور ، وأن ينقلب الفيل برغوثًا كذلك ! فإن سئل دروين عن الأشجار القائمة فى غابات الهند والنباتات المتولدة

فيها من أزمان بعيدة لا يحددها التاريخ إلا ظنا وأصولها تضرب فى بقعة واحدة وفروعها تذهب فى هواء واحد وعروقها تسقى بماء واحد ، فما السبب فى اختلاف كل منها عن الآخر فى بنيته وأشكال أوراقه وطوله وقصره وضخامته ورقته وزهره وثمره وطعمه ورائحته وعمره ، فأى فاعل خارجى أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء ؟ أظن لا سبيل إلى الجواب سوى العجز عنه .

وإن قيل له هذه أسماك بحيرة أورال ... مع تشاركها فى المأكل والمشرب وتسابقها فى ميدان واحد نرى فيها اختلافا نوعيًا وتباينًا بعيدًا فى الألوان والأشكال والأعمار . فما السبب فى هذا التباين والتفاوت فلا أراه يلجأ فى الجواب إلّا إلى الحصر » .

وهكذا ظن السيد جمال الدين أن مذهبًا كمذهب النشوء والارتقاء يناقش ويفند بهذه السهولة فيعيى صاحبه عن الجواب ! وفاته هو أن الأشجار والأسماك لم توجد فى الغابات والبحيرات التى ذكرها إلا بعد أن صارت أنواعا وفصائل محدودة ، وأن الأنواع لا يكفى لتكوينها أقل من الدهور الطويلة التى تقدر بمئات الألوف وبالملايين من السنين فى حساب النشوئيين ، وأن البرغوث إن شابه الفيل فى الخرطوم المزعوم فى كتب الحيوان القديمة فليس معنى ذلك أنه من فصيلته وتركيبه

وجنسه . ولكن العذر واضح للسيد فى عزوب التفصيلات الداروينية عنه لأنها كانت يومئذ تعزب عن عقول الأوربيين المقيمين مع داروين فى بلد واحد وبيئة علمية واحدة .

فمن العجيب أن هذا الرجل الذى حسب داروين من الماديين المعطلين - وهو ليس منهم - قد كان هو نفسه متهما بالمادية فى نظر الجامدين والمغرضين ، فزعموا أنه ملحد ينكر وجود الله والرسالات النبوية ولا يؤمن بالبعث والنشور ، وليس فى تاريخ الرجل ولا فى كلامه ولا فى أعماله دليل ولا شبه دليل يثبت عليه الإلحاد والتعطيل .

ولكنه كان متصوفا ينزع فى فهم الدين منزعا لا يقره الجامدون ، وكان عظيم المنزلة فى النفوس وهم ينفسون عليه تلك المنزلة ولا يعرفون بابا يهجمون عليه غير باب الدين .

وكان يصطنع المجاز أحيانا فى التعبير فيجدون فى ثنايا كلامه ما يتوسعون فى تأويله وتشويهه حتى يخرجوه مخرج الكفر والإنكار ، فمن ذلك أنه قال مرة فى الآستانة : « إننى أطوف بأشجار البندلر طواف الحجيج بالكعبة » فثارت عليه ثائرة أعدائه وقالوا إنه ينكر مناسك الحج أو يسخر بها فى هذه العبارة .

وشبه المعيشة الإنسانية مرة أخرى ببدن حى ، وقال : « إن كل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن تؤدى من المنفعة فى المعيشة

ما يؤديه العضو فى البدن ولا حياة لجسم إلا بروح ، وروح هذا الجسم إما النبوة وإما الحكمة ، ولكن يفرق بينهما أن النبوة منحة إلهية لا تنالها يد الكاسب يختص الله بها من يشاء . أما الحكمة فما يكتسب بالفكر والنظر فى المعلومات » .

فلما سمع رسل شيخ الإسلام فى الآستانة هذه الخطبة ذهبوا يقولون إن جمال الدين ينكر النبوة ويجعلها صناعة من الصناعات ! وأوعز شيخ الإسلام إلى أتباعه فى المساجد أن يتولوا كلام السيد بالتشهير والتفنيد ففعلوا ، واحتدم السيد غضبًا وملكته حدته المعهودة فأبى إلا أن يحاكم شيخ الإسلام ويعاقب ! فكبرت المسألة وتفاقمت وانتهت باضطرار الصدر الأعظم إلى إجلاء السيد عن الآستانة .

تلك أمثلة من شبهاتهم فى عقيدة جمال الدين ، وهى كما ترى لا تثبت عليه شيئًا مما زعموه ، وإنما تثبت عليهم الحسد والضغينة ، وليس فى جميع ما سمعناه وقرأناه عنه ما يمس عقيدته وإيمانه بشعائر دينه ، فقد كان يؤدى من الفرائض ما يؤديه المسلم الحنفى على مذهب أبى حنيفة ، مع الاجتهاد والتصوف الذى يجنح إليه فقيه مستقل متصوف ، وليس التصوف بغريب من رجل نشأ بين الهند وفارس وعاش طول حياته يتقلب فى الآفاق ويقنع بمعيشة النساك .

وصفوة القول فى مكانة هذا الرجل العظيم وحصته من الثقافة والمعرفة أنه كان داعية من أكبر دعاة الإصلاح بين المسلمين فى التاريخ الحديث أو التاريخ القديم وأنه خرج إلى الدنيا مزودًا بألزم ما يحتاج إليه الدعاة المصلحون من زاد العقل والخلق ، فتمت له أداة الدعاية من شتى الوجوه .

تعلم الفنون القديمة وأضاف إليها كل ما تسنى له الاطلاع عليه فى اللغات التى كان يعرفها ، وهى الفارسية والعربية والتركية والهندية والإنجليزية والفرنسية ، فاجتمع له حظ من العلم الغزير يزداد غزارة وإثمارًا فى لب خصيب مثل لبه وبداهة مشرقة مثل بداهته ، ثم طوّف فى البلاد وسبر أغوار الرجال والأمم فاستوفى من معرفة الدرس ومعرفة الخبرة ما ليس يتاح إلا للأفذاذ القليلين .

وانطبعت نفسه على الشجاعة والطموح والثقة بالنفس . وعلو الهمة عن الصغائر وعزوف البداوة عن الترف والنعمة فهانت لديه العقبات واستخف بالكوارث وسهل عليه التمرد وتأهب للثورة على الجمود حيثما اصطدم بالجمود والجامدين ، قال روشفور : « لقد حبب إلىّ هذا الرجل الذى يشبه الأنبياء ما يحبب إلى كل متمرد ثائر » وهذا الذى حبب جمال الدين إلى روشفور هو الذى حبب المتمردين إلى جمال الدين ، حتى كان من أشد أنصار المتمهدى السودانى محمد أحمد لأنه قد أنكر

ما أنكر من مظالم زمانه ونفاق علماء عصره .

واستجابت لجمال الدين كل وسائل المغناطيسية أو التأثير الشخصى من ذلاقة اللسان ومهابة المحيا وقوة الإقناع . فغلبت فيه الوسائل الخطابية على الوسائل الفلسفية أو العلمية ، فهو خطيب مؤثر قبل كل شىء ، يتكلم فيسحر سامعيه فإذا أراد أن يكتب أملى على تلاميذه فى لهجة خطابية ملتهبة .. فكأنما هو يتكلم ولا يكتب . وربما كان فى هذا بعض التعليل لندرة تواليفه على سعة علمه ، فليس بين أيدينا من كتبه غير رسالة فى تاريخ الأفغان ورسالة فى الرد على الدهريين ومقالة فى القضاء والقدر ، ويقول ولسن فى تاريخ الحركات الفكرية بين المسلمين : إنه ألف رسالة فى الخلافة ولكنها صودرت ولم تظهر . وهو فى معظم ما ألف أقرب إلى الخطيب منه إلى الكاتب الفيلسوف ، وكان ليقينه من أثر الإقناع الشخصى يعتمد على الأساليب الخطابية فى لفت الأنظار كما كان يعتمد عليها فى المساجلة والمناقشة : روى الزعيم التترى عبد الرشيد أفندى الذى صحب جمال الدين كثيرًا فى البلاد الروسية أنه شهد معه التمثيل فى دار الأوبرا القيصرية والقيصر والأمراء ورجال الدولة حاضرون ، فلما اتسقت الدار بمن فيها وقف جمال الدين فى مقصورته واستقبل القبلة وطفق يصلى فى غير أوان الصلاة فالتفت إليه الناس وانصرفوا عن التمثيل وعن القيصر والأمراء ، وجاء رسول القيصر يستفسر

فلم يكترث له ولم يقطع صلاته حتى شاء أن يفرغ منها ، فلما أقبل عليه عبد الرشيد أفندى دهشًا متذمرًا من هذه المخاطرة المزعجة المخيفة فأجابه بما معناه أن هذه الحركة منه أفعل فى تنبيه الأذهان إلى قضية الإسلام والمسلمين فى البلاد الروسية من كتابة الكتاب وبلاغة البلغاء ، وقد يرى بعض المعاصرين أنها أساليب مسرحية تعرض صاحبها للسخرية فى عصرنا الحديث ، ولكنها ولا ريب كانت من خير أساليب الدعاية فى عرف الأقدمين ومن نشأ على نشأتهم بين الشرقيين ، فما كان يتحرج منها أصلح الصالحين ولا أشرف المصلحين .

وقد يحمد من جمال الدين فى باب الدعاية وأدواتها الشخصية ما ليس يحمد من الباحث الفيلسوف ، فقد يعسر على فيلسوف يعرف بواعث النهوض فى الأمم ويقدر دواعيها المتشابكة وموانعها الدقيقة أن يطمع فى خلق جامعة إسلامية بالإقناع والإيحاء فى مدى عشر سنوات أو عشرين سنة من مجهود رجل واحد ، أما جمال الدين فكان يؤمن هذا الإيمان أو كان يؤمن – على الأقل – بأن قيام دولة واحدة إسلامية فى قوة الدول الأوربية الكبرى مطلب ميسور لمثله فى حياته ، وإذا عارضه الشيخ محمد عبده وقال له إن الوصول إلى هذا المطلب إنما يكون بتعليم طبقة بعد طبقة من المصلحين يتولون تحقيقه مع الأيام غضب منه وقال له : « بل أنت من المثبطين » وإنا نحمد هذا

الإيمان من جمال الدين ولا نحمده من الفلاسفة الباحثين لأنه أدعى إلى إذكاء حميته واستجاشة عزمه ، والحمية والعزم أنفع لدعاة الإصلاح بالمؤثرات الشخصية من طول البحث والتعمق فى التفكير .

* * *

تكلمنا عن صفات جمال الدين وكنه ثقافته ولم نتكلم إلا قليلا عن ترجمته ووقائع حياته .

وقد تعمدت ذلك لسببين :

أولهما : اعتقادى أن حياة الرجل العظيم هى التى تعنينا قبل وقائع حياته ، إذ كانت وقائع الحياة وسيلة تؤدى بنا إلى استكناه حياته ، ونفسه ، وليست هى بالغاية المقصودة فى صميمها .

والسبب الثانى : أن الإحاطة بدقائق السيرة فى هذا الصدد من أشق الأمور على المؤرخ الباحث ، لأن ترجمة جمال الدين تنقسم إلى قسمين هما سيرته فى نشأته الأولى وسيرته فى أخريات أيامه : ففى الأولى تقل المعلومات جدًّا حتى يكاد لا يوجد منها بين أيدينا إلا ما تلقاه المريدون عن السيد فى عرض الحديث ، وفى الثانية تستفيض المعلومات جدًّا حتى تتعذر الإحاطة بها فى محاضرة واحدة .

فسبيلنا إذن أن نجتزئ بالضرورى الذى لا غنى عنه ونترك التطويل لموضعه من المطولات .

يبدأ الخلاف فى شأن جمال الدين من ساعة ميلاده .

فأناس – وهو منهم – يقولون إنه مولود فى بلاد الأفغان ، وروى لى من يوثق به نقلا عمن لقى السيد فى البصرة بعد خروجه من إيران أنه سئل : أأفغانى هو أم إيرانى ؟ فنفر للسؤال وقال بل أنا أفغانى . ولكنها حكومة الشاه تلفق نسبتى إلى إيران لكى تتسنى لها المطالبة بتسليمى إليها إذا بدا لها ذلك .

وأناس آخرون – ومنهم تلميذه – عبد الرشيد أفندى ، يقولون إنه مولود فى إقليم همذان من البلاد الفارسية .

وغيرهما يقول إن أبويه فارسيان ولكنه ولد فى بلاد الأفغان .

ويسأل السائل : ما بال الرجل يخفى مولده وينتسب إلى غير وطنه ؟ فيجيب الأستاذ براون : إنه فعل ذلك لينفى عنه مذهب الشيعة ويدخل فى عداد المسلمين السنيين ، لأنه قدر أن إصلاح المسلمين أيسر لمن كان يدين بالمذهب الغالب على الأمم الإسلامية .

بيد أن الأمير شكيب أرسلان يقول فى شرحه لكتاب حاضر العالم الإسلامى :

« لقد لقيت فى المدينة المنورة قبل الحرب العامة بأشهر السيد حسينًا أحد ولاة الأفغانستان ومن سادات كنز المشار إليهم وأفاضلهم ، وعلمت منه أن السيد جمال الدين رحمه الله هو منهم ، كما أنى سمعت ذلك من جميع رجال الدولة الأفغانية

وسفرائها الذين جمعتنا بهم التقارير فى أوربا بعد تأسيس سفارتهم بها » .

وهذه الرواية مع رواية السيد نفسه ورواية تلميذه الأكبر الشيخ محمد عبده سند متين فى صحة انتساب جمال الدين إلى بلاد الأفغان ، ولا ترد الشبهة عليها إلا من ناحية واحدة : وهى أن الناس يفخرون بانتساب العظماء إلى أوطانهم ، فلا عجب أن يقبل الأفغانيون فخرًا ينالهم بانتماء عظيم كجمال الدين إليهم . إذ ليس بالسهل على الأفغانى أن يجرد وطنه من فخر زعيم جليل ملأ ذكره الخافقين ، فإن وجب أن نلتفت إلى هذه الشبهة فيجب علينا أن نذكر – مع الالتفات إليها – أنها شبهة ظنية لا تنهض فى وجه ذلك السند المتين .

ومن ثم نرجح أكبر الترجيح أن السيد جمال الدين ولد فى الأفغان . وقد علمنا من روايته وروايات تلاميذه أنه « هو السيد جمال الدين بن السيد صفر من بيت عظيم فى بلاد الأفغان ينتهى نسبه إلى السيد على الترمذى المحدث المشهور ويرتقى إلى الحسين بن على » وأن آل هذا البيت عشيرة وافرة العدد تقيم فى « خطة كنز » من أعمال كابل تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام ، ولهذه العشيرة منزلة علية فى قلوب الأفغانيين يجلونها رعاية لحرمة نسبها الشريف ، وكانت لها سيادة على جزء من الأرض الأفغانية تستقل بالحكم فيها سلبها إياه الأمير دوست محمد خان .

وقد ولد فى سنة ١٢٥٤ هـ الموافقة لسنة ١٨٣٩ م ودرس بين الخامسة والعاشرة فى وطنه ثم درس بعد العاشرة فى أماكن شتى من فارس وأفغان وأتم دروسه الشخصية فى نحو الثامنة عشرة فبرح بلاده إلى الهند لتحصيل بعض العلوم العصورية ، ثم قصد إلى الحج فوافى مكة ١٢٧٣ هـ الموافقة ١٨٥٧ م وعاد منها إلى أفغان فخاض فى معترك النزاع بين الأمراء على عرش البلاد وبلغ منصب الصدارة فى عهد الأمير محمد أعظم ثم انهزم محمد أعظم فهجر جمال الدين بلاده مستأذنًا فى الحج مرة أخرى عن طريق الهند فاستقبلته الحكومة الهندية استقبالا حسنا ولكنها حالت بينه وبين الاتصال بالعلماء والمفكرين .

ومن الهند قصد إلى مصر وهو لا ينوى أن يطيل المقام فيها .

ثم عدل عن الحج وقصد إلى القسطنطينية فلم يلبث أن أخذ فى الدعاية لتعزيز مقصده الأكبر من إصلاح الدول الإسلامية ، فعظمت مكانته والتف به التلاميد والأنصار من جميع الطوائف ، وكان ذلك سبب الغارة التى شنها عليه الجامدون والحاسدون من أدعياء العلم والرئاسة الدينية ، فرجع إلى القاهرة محنقًا فى الثانى والعشرين من شهر مارس ١٨٧١ .

وكان على نية السفر من مصر بعد فترة وجيزة لولا أن استبقاه رياض باشا وأجرى عليه مرتبا شهريا عشرة جنيهات مصرية ، وما لبث - كدأبه فى كل مكان - أن خاض غمار

السياسة واشترك فى الحوادث التى أفضت إلى خلع الخديو إسماعيل ثم فى الحوادث التى أفضت إلى الثورة العرابية ، فنفته الحكومة فى ١٨٧٩ وخرج من مصر غاضبًا لا يملك زاد سفره ولما عرضوا عليه المال رفضه وقال لهم « بل تبقون المال لكم ، إن الأسد لا يعدم فريسته أنى ذهب » .

وفى هذه الفترة تلقى عليه العلم والدعاية السياسية كثير من خيرة الأدباء فى تلك الأيام ، أعظمهم وأبقاهم أثرًا وأجدرهم بالزعامة بعده الأستاذ الإمام محمد عبده رأس النهضة الإصلاحية فى مصر الحديثة .

ذهب جمال الدين من مصر إلى الهند لا يصحبه غير تلميذه الفارسى الوفى أبو تراب ، فأقام فى حيدر أباد زمنًا وألف فيها رسالة الرد على الدهريين باللغة الفارسية ، وقد اعتقلته الحكومة الهندية فى خلال الثورة العرابية مخافة أن يشترك فيها بوثبة من وثباته ، ثم أفرجت عنه بعد خمود الثورة فبرح الهند إلى لندن حيث قضى أيامًا قليلة وسافر منها إلى باريس .

هذه هى أشهر الروايات عن رحلته إلى الهند فى هذه المرة ، لكن ولسن صاحب كتاب الحركات العصرية بين المسلمين يروى أن جمال الدين سافر فى أثناء ذلك إلى أمريكا على نية التجنس بالجنسية الأمريكية ، ولا يدعم روايته بسند صحيح أو خبر مأثور ، بل يقول بلنت – وهو من أصحاب جمال الدين – إنه قد

أطال البحث فى استكشاف هذه الرحلة المزعومة فلم يظفر بطائل .

ولم تمض على جمال الدين أيام فى باريس حتى شرع فى الدعاية لقضيته المحبوبة ، ودخل فى حوار مع الفيلسوف رينان حول الإسلام والعلم واستعداد الإسلام لإصلاح المتمدينين بعقائده . ثم استقدم إليه الشيخ محمد عبده فى سنة ١٨٨٤ وكان منفيًّا بالديار السورية فى أعقاب الثورة العرابية ، فوافاه بباريس وشرعا معًا فى إصدار صحيفة « العروة الوثقى » فحالت الدول الأوربية دون وصولها إلى الأمم الشرقية واضطرا إلى إغلاقها ولما تكمل لها سنة واحدة ، فكان كل ما ظهر منها ثمانية عشر عددًا بين ١٣ مارس ١٨٨٤ و ١٦ أكتوبر من تلك السنة . ولكنها على الرغم من منعها وقصر أيامها قد أثارت فى العالم الإسلامى ثائرة النقمة واليقظة فحسبت لها الدول الأوربية حسابها . وبرح باريس بعد فشل الصحيفة إلى موسكو وبطرسبرج يبتغى الإصلاح من ناحية الروسيا بعد أن يئس من الدول الغربية فمكث فيها أربع سنوات يكتب ويخطب ويسفر لدى القيصر فى الترفيه عن المسلمين والسماح لهم بطبع المصحف وإقامة الشعائر الإسلامية . ثم لقيه الشاه ناصر الدين فى مونيخ فألح عليه إلحاحًا شديدًا حتى أقنعه بالسفر إلى طهران ، وأسند إليه منصب الوزراة ،

ويقال إنها المرة الثانية التى تولى فيها منصبًا فى الوزارة الفارسية .

ولكن الإصلاح الذى لا يغفل عنه طرفة عين جر عليه هنا المنافسة والعداء كما جرها عليه فى كل مكان ، فانتهى الأمر إلى إخراجه على الصورة التى وصفها فيما تقدم ، ولم يغادرها حتى كان قد بث دعايته فى نفوس عدد كبير من التلاميذ والأتباع : منهم اثنا عشر كان لهم شأن مذكور فى الحركة الفارسية بعد ذلك .

وصل جمال الدين إلى البصرة فى أواخر سنة ١٨٩٠ أو أوائل سنة ١٨٩١ ، ولم يمكث فيها إلا ريثما تماثل للشفاء مما أصابه فى طريق منفاه وهو محموم مغموم ، ثم شخص إلى لندن حيث وافته الرسل من السلطان عبد الحميد يدعونه إلى القسطنطينية فأجاب الدعوة سنة ١٨٩٢ ولقيه السلطان لقاء جميلا وعامله فى مقابلاته كأنه من الأقران والأنداد ، وربما كان الفضل الأعظم فى هذه المعاملة لجمال الدين لما استقر فى خليقته من العزة والنخوة ، فما كان ليقبل من عبد الحميد أو من غيره منزلة دون هذه المنزلة ، حتى قيل إنه حجب عن السلطان فى أول قدومه مرتين بأعذار طارئة فأبى أن يذهب إلى المابين فى المرة الثالثة ، وقال « لن أعود » ..

وأصر على إبائه فلم يعدل عنه إلا بعد رجاء واعتذار .

وبقى فى الآستانة معززًا فى معظم الأوقات مراقبًا فى جميع

الأوقات حتى أدركه أجله سنة ١٨٩٧ ولما يبلغ الستين .

وقد اختلفت الأقوال فى موته كما اختلفت فى ميلاده ، فأناس يقولون إنه مات بالسرطان ، وأناس غيرهم يقولون إنه مات مسمومًا بدسيسة من السلطان ، وأنه لما ظهر المرض فى فكه أبى السلطان أن يجرى العملية له أحد غير طبيبه الخاص قمبور زاده اسكندر باشا ، ورآه الدكتور لاردى - وهو لا يزال حيًّا مقيمًا بجنيف كما يقول الأمير شكيب أرسلان - فوجد أن العملية لم تجر على وجهها ، لم تعقبها التطهيرات اللازمة ، وروى الأمير شكيب أنه سمع من بعض العارفين بقمبور زاده اسكندر باشا أن الرجل أطهر وأشرف من أن يرتكب هذه الدناءة ، « ولكن كان رجل عراقى اسمه جارح طبيب أسنان يتردد كثيرًا على جمال الدين ويعاين له أسنانه وكانت نظارة الضابطة قد استمالته بالدراهم وجعلته جاسوسًا على المترجم ... ولم يمض عدة أشهر على حادث الشاه حتى ظهر السرطان فى فك السيد من الداخل وأجريت له عملية جراحية فلم تنجح .. » .

ولسنا نستغرب أن تجنى الدسائس الحميدية على المصلح الكبير تلك الجناية الخبيثة بعدما خامر عبد الحميد من الشك فيه والتوجس منه ، إذ ليست هى أولى الجنايات ولا آخرها فى ذلك العهد الموبوء ، فإن صح أنه لقى حتفه بالسم أو بالجراثيم فقد نجح عبد الحميد فى قتله ، ولكنه لم ينجح فى قتل أفكاره وكبح

مساعيه ومنع رسالته الجليلة أن تعم أمم الشرق قاطبة ، وفى طليعتها تركيا الحديثة .

ولئن عوجل الرجل بالموت قبل أوانه فلقد أدى الأمانة كما ينبغى وفوق ما ينبغى ، وقام برسالة تنوء بها كواهل المئات من أفذاذ العظماء ، فلا نعرف فى عالم الإصلاح رجلاً شرقيًا أو غربيًا ، قديمًا أو حديثًا ، قام بأجل وأهول مما قام به جمال الدين فى مدى هذه الفترة الوجيزة ، وأى رسالة أجل وأهول من رسالة رجل فرد يرتبط تاريخه بتاريخ كل انقلاب فى مصر وفارس وتركيا والهند وأمم أخرى يتغلغل فيها أثره ولا يبرز هذا البروز ؟ فلم تنهض أمة لدفع الظلم وحماية الحق إلا كانت دعوة جمال الدين فى مقدمة البواعث التى حفزتها للنهضة ونفخت فيها روح البأس والشجاعة ، ولا نظن أن فى مصر أو فى بلاد الشرق الإسلامى رجلاً واحدًا مشتغلاً بالثقافة فى مناحيها المتفرقة إلا وهو مدين بشىء من حريته أو بشىء من تفكيره لهذه القوة السماوية المفرغة فى قالب إنسان ، وإنى لأتحدث بهذا عن معرفة صميمة هى معرفة المرء بنفسه ومعرفته بأبناء جيله .

وأود فى هذه المناسبة أن أصحح خطأ قد يتعلق بى فى سياق الكلام عن هذا الجبار النادر المثال ، وأعنى به خطأ الدكتور شارل أدامس الذى ألف كتابًا خاصًا فى العلاقة بين الشيخ محمد

عبده وجمال الدين من جهة والعلاقة بين محمد عبده واللاحقين به من جهة أخرى .

فإن الدكتور أدامس يقول فى تاريخ الجيل المعاصر من المحدثين : « إن تأثير محمد عبده المباشر فيما يتعلق بعباس العقاد وإبراهيم المازنى ربما كان أبعد احتمالاً من تأثيره فيما يتعلق بهيكل ، لقلة الصلة الشخصية وروابط المعرفة بينهما وبين جماعة الشيخ محمد عبده ، وقد كان العقاد صديقًا لسعد باشا زغلول . ولكن فى خلال السنوات الأخيرة التى أصبح للسياسة فيها المكان الأول فى تاريخ سعد » إلى آخر ما قال فى هذا الباب .

والصحيح أننى أتصل بجمال الدين من ثلاث جهات لا من جهة واحدة .

فقد حضرت دروس الأدب على تلميذه الشيخ أحمد الجداوى العالم الأسوانى الأديب ، ورأيت الشيخ محمد عبده فى مجلسه ولما أتجاوز الدراسة الابتدائية .

ثم لقيت الشيخ محمد عبده وعنيت بعد لقائه بقراءة ما اتفق لى من تفسيره ومن مقالاته وفصوله : قدمنى إليه أستاذى الشيخ فخر الدين محمد فأفسح صدره لمناقشتى وقال للشيخ فخر بعد اطلاعه على طرف من موضوعاتى الإنشائية : « ما أجدر هذا أن يكون كاتبًا بعد » وقد كتبت هذا فى مقال لى عن سعد رحمه الله منشور بمجلة الهلال ، وأحسب أن توقيرى للشيخ محمد عبده بل

إعجابى به هو الذى جعلنى من أنصار الاستقلال المصرى ولم يجعلنى من أنصار السيادة العثمانية التى كانت مذهبًا شائعًا بين لداق من التلاميذ فى عهد مصطفى كامل ومن نحا نحوه فى الوطنية ، وهو الذى جعلنى من أنصار سعد قبل أن يتقدم للزعامة بأكثر من عشر سنوات ، كما أحسب أن كلمة الشيخ محمد عبده فى تشجيعى واستحسان موضوعاتى الإنشائية قد كان لها أثر غير ضعيف فى توجيهى إلى الحياة الأدبية .

أما الجهة الثالثة التى تصلنى بجمال الدين فهى جهة سعد وريثه فى زعامة الوطنية المصرية غير مدافع .

ولقد آثرت تصحيح هذا الخطأ هنا لأسباب عدة : منها أن الأمر يعنينى فى سياق الكلام عن جمال الدين ، فأنا المطالب ببيانه ، وهذا موضع الكلام فيه .

ومنها الوفاء بحق لذلك الرجل العظيم يفرض علىَّ الاعتراف به فى مناسبة من المناسبات ، وليس أفضل من هذه المناسبة ولا أجدر من أن تكون محاضرتى عنه تذكارًا مقصودًا وحصة من واجبى له وحقه على .

ومنها بيان حقيقة جوهرية تزيدنا تعريفًا بمسالك العظمة فى الإصلاح على بعد المسافة وافتراق الطرق ، فمن ذا الذى يخطر له أن فيما أكتب وفيما أعالج من أدب وسياسة قبسًا مقدوحًا من فكر جمال الدين ؟ إن من لا يعلم ذلك بالسماع لا يعلمه

بالاستدلال ، ومن هنا سلكت العظمة هذا المسلك بين أفغان وأسوان وبين الجامعة الإسلامية والوطنية المصرية والدعوة الأدبية الإنسانية . فكأنما العظيم بحر يرسل السحب المرويات فتنبت الثمر فى مناكب الأرض حيث لا تقع عين على البحر ولا يتردد له اسم فى الأسماع ، وليس بين بحار العظمة والإصلاح بحر أحفل بالسحب ولا أبعد إزجاء لها من الجهات الأربع من بحر جمال الدين .